الفاطميَّة ، ومحا رسومَها ، لم يستبقِ من الأعياد التي استحدَثَتْها إلا عيدَ المولد النَّبويّ ، الذي ظلَّ المسلمون في شرق العالم الإسلاميّ يحتفلون به ، على أننا لا نلبث أن نرى هذا العيد يتَّخذ طابَعاً من الجَلال والفخامة لا عهدَ لنا به من قبلُ ، على يد قائدٍ من قوّاد صلاح الدين وكبار رجاله ، هو الملك المظَفَّر أبو سعيد كُوكبوري بن علي كُجَك صاحب مدينة إرْبل بقرب الموصل ، وكان من القوّاد الذين شاركوا صلاح الدين في كثير من مَشاهِدِه و وقائعه ، وأبدى شجاعة ونجدة ، مثل موقفه معه في معركة حطّين ، فكافأه صلاح الدين بأن أعاده إلى ولاية إرْبل بعدَ خَلْعه عنها في سنة ٥٨٦ .

ومع أن ياقوت لم يُخْلِه من النَّقد مُتَّهِماً إيّاه بعَسْف الرَّعيَّةِ ، فإن ابن خَلّكان أثنى عليه ثناءً مُسْتفيضاً ، فقال إنَّ سيرته كانت عجيبة في فعل الخيرات ، وإفْشاء الصَّدقات ، وبناء الخانقاهات للمرضى والعميان والأيتام والأرامل واللُّقَطاء ، وإنشاء المدارس وروابط الصّوفيَّة ، وغير ذلك من أعمال البِرّ و العُمْران . ويضيف ابن خَلّكان إلى ذلك قوله : « وأما احتفاله بمولد النَّبيِّ ﷺ فإن الوصف يَقْصُر عن الإحاطة به .» ثم يُفصِّل هذه العبارة ؛ فيذكر أنه كان يصل إليه كلَّ سنة من البلاد القريبة من إربل خَلْقٌ كثير من الفقهاء والصُّوفيَّة والوُعّاظ والشُّعراء ، ويقوم بنصب قِباب من الخشب من طبقات عديدة يُزَيِّنها بالزّينة الفاخرة ، ويُقْعِد في كل قبّة جَوْقاً من المغاني وأرباب الخَيال (خيال الظِّل) لأصحاب الملاهي ، ويُعْمل السَّمَاعات في ليلة المولد ، ويقوم الوُعّاظ والخُطباء والشُّعراء بإلقاء مواعظهم وأشعارهم ، فإذا فرغوا جَهَّز كلَّ من قدِمَ منهم بنفقة ومال ليعود إلى بلده .[1]

وهكذا يتحوَّل الاحتفال بالمولد النَّبويّ على يد هذا الأمير التُّركُماني الأصل ، إلى مهرجانٍ شعبيّ على أعظم جانبٍ من الفخامة والبهجة ، ويذكر

(١) انظر معجم البُلْدان لياقوت ، ج ١ ، ص ١٣٨ (مادة إرْبل) ، وترجمة كوكبوري في وَفَيات الأعيان لابن خَلّكان ، ج ٤ ، ص ١١٣-١٢١ .